يوفال عبري (*)

«الغرائبيّة الأصيلة»- حول العرصات والفريحات في الثقافة الإسرائيليّة

«سمميت بيتان» هي طالبة حقوق جامعيّة تهتمّ بالفيزياء، وهي منتسبة إلى معهد لياقة مُتأنّق وتعيش في تل أبيب. ولكن ما العمل، فمن مرة لأخرى تتغلغل إلى لغتها العبريّة الرفيعة والمنمّقة كلمات فريحَه. وهي تحاول طبعًا التستّر على هذه الهفوات اللغويّة، إلاّ أنّ صاحبها يشكّ في المسألة؛ وبعد تبيُّن بطاقة هُويّتها تأكّدت شكوكه: فسمميت بيتان هي سيما بيطون، وهي لم ترتدِ الجامعة قط. هذه هي القصة العامّة لأحد الإسكتشات الساخرة التي كتبها ناؤور تسيون والتي تتركّز في شخصيّة العرص والفريحه. ومع تقدّم الإسكتش تتكشّف سيما بيطون «الحقيقيّة» التي تبدأ بالصراخ بصوت عالٍ وتعاود الحديث الفريحيّ الذي حاولت جاهدةً قمعه وكبته. ويتمتم صاحبها ناؤور تسيون لنفسه ولنا: «ها قد بدأت الأمور بالتكشّف»، وكأنّ المسألة لم تكن إلاّ مسألة وقت فحسب. ويتركّز المشهد الأخير في ناؤور تسيون وهو يصرخ «أنتِ سيما بيطون! أنتِ سيما بيطون!»، فيما ينفجر الجمهور بالضحك.

ويُستخدم مصطلحا «العرص» و«الفريحه» كأداة للتصنيف الفئويّ للهُويات، كجزء من المشروع القوميّ. وهما يُسبغان على مجموعة واسعة من الناس (من الشرقيين والشرقيّات على الأغلب، وأحيانًا من مهاجري الاتحاد السوفييتي أو أبناء الشرائح المتدنيّة، من دون علاقة بالمنشأ الإثنيّ)، تعريفًا مقلّصًا وتعميميًّا ومستندًا إلى الأفكار المسبقة، تُموضعهم في أدنى التدرّج الإثنيّ والطبقيّ والمجتمعيّ. ومنذ سنوات طويلة، ينشغل عالم الثقافة الإسرائيليّ والحيّز الذي يحيط به بشخصيتيِّ العرص والفريحه. وترى

(*) عالم اجتماع وباحث في الشأن الثقافي وباحث في «مركز مندل للأبحاث»- القدس.

تقوم اللغة والثقافة الإسرائيليّتان بتبييض عنصريّتها. فهي تُلقي بمظاهر العنصريّة القائمة في اللّغة نحو اللغة غير الرسميّة- المَحكيّة. ولا تنجح اللغة الرسميّة النقيّة ببلورة الواقع الإسرائيليّ الهجين في ضمن مفاهيم محدّدة، وهي تدفع ما لا يمكن تصنيفه أو فَهْمَنته نحو هامش اللغة. ويسمح الحقل المخترق للّغة غير الرسميّة بتمثيل ديناميكيّ ومتعدّد الأبعاد، غير مقيّد بأحكام اللّغة المعياريّة.

شخصيّتيْهما تؤدّيان أدوار البطولة في الأفلام والبرامج المتلفزة والكتب والأغاني. ويدين نجوم صناعة الترفيه الإسرائيليّة لهما بالانطلاقة الكبيرة التي حصلت معهم في العقود الأخيرة، ومنهم: شالوم أسياج وناؤور تسيون وتسفيكا هدار وأورنا باناي، فيما أسّس آخرون من حولهم سيرة مهنيّة ناجحة. ويشير الكثير من الأبحاث الأكاديميّة إلى كيفيّة قيام تمثيل العرص والفريحَه النمطيّ بهيْكَلة الهُويّة الشرقيّة باعتبارها هُوية متخلّفة ومُتدنيّة مقابل صورة الأشكنازيّ «الصّبار». وقد تحوّلت شخصيّتاهما في الأدب الشرقيّ إلى رمز للنضال الشرقيّ، وفعل مقاومة عبر محاولة إعادة تأسيس اللغة وعمليّة التمثيل. «العرص» و«الفريحه» يعيشان وينبضان في كلّ مستويات الثقافة الإسرائيليّة.

***

أشار باحثون في المجال الثقافيّ (مثل فوكو وفانون وباتلر) إلى كيفيّة قيام اللغة بإنشاء فئات تُنظّم العالم وتخلق شروطًا للانتماء والتقوقع، وكيفيّة قيام هذه المنظومة من المدلولات ببلورة الواقع. اللغة تُعرّف وتحصر، تسمح بالتصنيف والسيطرة وإنشاء منظومة مدلولات مُهيْكلة وموحّدة. لكن، وإلى جانب منظومة اللغة الرسميّة المُصنّفة والمُنظّمة، ثمة منظومة لغويّة غير رسميّة، ديناميكيّة ومتبدّلة، ليست خاضعة لأحكام اللغة المعياريّة. هذه الحلبة اللغويّة مُشبعة بالصراعات الخفيّة والظاهرة؛ وهي تسعى ضدّ سيطرة فئات اللغة المعياريّة وتزعزع وجودها المستقلّ والنقيّ. وهي تخرق النظام وتُنشئ عالمًا متعدّد المدلولات، وتنشط في المناطق الحدوديّة والهوامش غير المُعرّفة اصطلاحيًا التابعة للّغة المعياريّة. إنّها تأخذ هذه المفاهيم «السويّة» و«المعياريّة» نحو التطرّف، وتُلوثّها وتُشوّهها.

تقوم اللغة والثقافة الإسرائيليّتان بتبييض عنصريّتها. فهي تُلقي بمظاهر العنصريّة القائمة في اللّغة نحو اللغة غير الرسميّة– المَحكيّة. ولا تنجح اللغة الرسميّة النقيّة ببلورة الواقع الإسرائيليّ الهجين في ضمن مفاهيم محدّدة، وهي تدفع ما لا يمكن تصنيفه أو فَهْمَنته نحو هامش اللغة. ويسمح الحقل المخترق للّغة غير الرسميّة بتمثيل ديناميكيّ ومتعدّد الأبعاد، غير مقيّد بأحكام اللّغة المعياريّة.

تنشط صورة العرص والفريحَه عند التّماس القائم بين اللغتيْن، وهي تفكّك خطوط الفصل بين اللّغة المعياريّة وبين اللغة غير المعياريّة وتزعزع التقسيمة المُطهَّرة بينهما. وعبر المكوث عند خط التماس هذا، ومن خلال فحص تمثّلات العرص والفريحه في الثقافة الإسرائيليّة، يمكننا تشخيص موقع ديناميكيّ وغير ثابت وعصيّ على التصنيف في داخل لغة الهُويّات القوميّة. ويقوم هذا الموقع بزعزعة التقسيمات الثنائيّة بين التقاليد والعصرنة، وبين الرجولة والأنوثة وبين الشرق والغرب– وهي تقسيمات تعمل على بلورة الرواية القوميّة الكاملة والموحّدة.

***

يُعتبر فيلم «شلاجر» (١٩٧٩) لآسي ديان، ومن دون شكّ، نقطة انطلاق جديرة. فـ «أغنية الفريحَه» التي غنّتها عوفراه حازا لكلمات آسي ديان، تكشف عن التوتّرات غير المحلولة المنضوية في شخصيّة الفريحَه. فهي رُسمت كفتاة ذات آراء، فردانيّة وانسيابيّة، لا تعمل حسابًا لأحد. وهي في حلٍّ من الالتزام بالمكان أو اللّغة، وهي تحلم بحبيب يأتي من الأفلام ومستعدّة للتحليق معه نحو السحاب. ويتغيّر الشعور بالتحرّر والحريّة، لكنّه يتجسّد في بيت واحد من أبيات الأغنية: «يومًا ما حين يسمح لي الوقت بأن أكبر/ يومًا ستنتهي الحفلة./ لأنّ في نهاية كلّ فريحَه تختبئ عمارة سكنيّة،/ وزوج مثاليّ وألف نقطة مفتوحة على الدخان». إنه ترسيم لخط التماس، اللحظة التي تنفتح فيها الهوّة بين التمثيلات: تمثيل الفريحَه كمُتحرّرة وانسيابيّة ولا تلتزم لرجل واحد، يتصادم مع

وقد عرّف دان بن أموتس ونتيفاه بن يهودا في «القاموس العالميّ للعبريّة المحكيّة» كلمة الفريحَه، بأنّها امرأة غير راقية ورخيصة وضاجّة. وفي سنوات الستين والسبعين شكّلت شخصيّة الفريحَه تهديدًا على روح الشعب الاشتراكيّة التي رأى المجتمع الإسرائيليّ ذاته من خلالها. فالفريحَه كانت ترمز للهيئة الصالونيّة والمتبرّجة والإيروسيّة مقابل روح الشعب الصهيونيّة التي تتميّز بالتواضع والتشابه. وقد تضمّنت في داخلها التناقض القائم في الصهيونيّة بخصوص الشرق والغرب؛ فصورتها في إطار الثقافة الإسرائيليّة سبقت الثقافة الاستهلاكيّة واقتصاد الجسد التي تُغرق المجتمع الإسرائيليّ في السنوات الأخيرة؛

تمثيلها كواحدة نشأت في بيت محافظ وتقليديّ وأبويّ. ويجري تخيّل الفريحَه في أغنية آسي ديان على أنها معدومة الماضي أو السياق التاريخيّ، ولكنها تتمتّع بمستقبل واضح وانتماء جغرافيّ دقيق.

وتشكّل كلمة «شمراء» (شحوردينيت- دمج بين سمراء وشقراء) المرتبطة بالفريحَه، كلمة هجينة تكشف بقوّة كبيرة عن خط التماس في اللغة والتمثيل. وهي تدمج بين الشعر الأسود والأشقر، بين التقليد والأصل، بين أطراف الشَعر وجذوره. وتُبرز كلمة «شمراء» الجذر، «الأصل» الأسود، الذي لا يمكن إخفاؤه أو تغطيته أو تمويهه. وتنضوي هذه الكلمة على الإحباط (أو زفرة الارتياح، والأمر منوط بوجهة النظر) جراء عدم القدرة على التغيّر والانقطاع عن التوسيم وتبنّي هُوية أخرى.

وقد عرّف دان بن أموتس ونتيفاه بن يهودا في «القاموس العالميّ للعبريّة المحكيّة» كلمة الفريحَه، بأنّها امرأة غير راقية ورخيصة وضاجّة. وفي سنوات الستين والسبعين شكّلت شخصيّة الفريحَه تهديدًا على روح الشعب الاشتراكيّة التي رأى المجتمع الإسرائيليّ ذاته من خلالها. فالفريحَه كانت ترمز للهيئة الصالونيّة والمتبرّجة والإيروسيّة مقابل روح الشعب الصهيونيّة التي تتميّز بالتواضع والتشابه. وقد تضمّنت في داخلها التناقض القائم في الصهيونيّة بخصوص الشرق والغرب؛ فصورتها في إطار الثقافة الإسرائيليّة سبقت الثقافة الاستهلاكيّة واقتصاد الجسد التي تُغرق المجتمع الإسرائيليّ في السنوات الأخيرة؛ فـ «الفريحيّة» هي رمز معاصر وآنيّ لثقافة الاستهلاك الجماهيريّة. وقد أدّى الانتقال بين الفترات إلى إنشاء خطّ تماس بين الفريحيّة الجديدة وبين الفريحَه التقليديّة. فالشمراء ترمز إلى الخط الفاصل بين الفريحَه الجديدة، والتي تشكّل جزءًا من اقتصاد الترفيه والماركات التجاريّة، و«ضحيّة الموضة» التي تتغذّى على العالم الرأسماليّ، وبين الفريحَه القديمة والتقليديّة، التي تريد أن تصبح جزءًا من الثقافة الإسرائيليّة الجديدة، إلاّ أنّ جذورها تُحبط هذا المسعى.

وتُبرز حالة النوادي الليليّة الإسرائيليّة خطوطَ الحدود الواضحة والقاطعة بين فئات الهويّة هذه. فالنوادي الليليّة تُقيِّم وفق كميّة العرصات والفريحات الذين يرتادونها، ويقوم الحُراس المسؤولون عن إدخال الناس بتصنيف العرصات والفريحات وفق فئات تعود إلى الشكل واللغة والتصرّفات، ويطلقون الأحكام بخصوص من سيدخل ومن سيبقى في الخارج. ونحن نرى عوفاديا، بطل كتاب دودو بوسي، «أمّي تشتاق للكلمات» (٢٠٠٦)، يتواجه مع هويّته الشرقيّة عندما يجري تصنيفه كعرص في نادٍ ليليّ تل أبيبيّ. فسنوات طويلة من محاولة محو هُويّته الشرقيّة من خلال الارتباط بممارسات عمليّة جمعيّة «إسرائيليّة» (هشومير هتسعير، ضابط في وحدة رفيعة)، تذوب كلّها في مواجهة الحارس الذي يُقصيه عن النادي اللّيليّ: «لقد كانت هذه هزّة قويّة جدًا، إحساس حقيقيّ بالفقدان. في الجيش أنا جنديّ وضابط متفوّق، مُدمن على العسكريّة تتلمذ على يد مسؤوليه ويُدرّس جنوده الشعار المَكرور «الواحد للجميع والجميع للواحد». شخص ألمعيّ يتطوّع لأداء المهمّات الخطرة من دون أن يطرف له جفن. ضابط مشهود له دفن في مطلع الأسبوع ثمانية جنود محبوبين. وهنا، في الحياة المدنيّة، أنا مجرد عرص لا يصلح

إنّ حدود النادي اللّيليّ تعيد رسم حدود الجّمع الإسرائيليّ بما يُزعزع الروايّة القوميّة المهيمنة التي تعكس أتون الصَّهر. ويجري في هذا الحيّز إبراز خطوط الفصل الإثنيّة والقوميّة والاقتصاديّة، التي يحاولون تمويهها في الحيّز العامّ الرسميّ (الجيش وحركات الشبيبة والجهاز التربويّ). في هذه الفضاءات، تشكّل ممارسات التشخيص الخارجيّ، والرفض أو المناداة بالاسم («أنت سيما بيطون»، «لا دخول للعرصات»)، عنصرًا مركزيًا في هَيْكلة الهُويّة الذاتيّة لدى العرصات والفريحات.

حتى لدخول مكان للترفيه. لقد انكسرتُ. فلمَ أحارب وعلامَ؟ سألتُ نفسي. ولأجل من أخاطر بحياتي؟». إنّ حدود النادي اللّيليّ تعيد رسم حدود الجّمع الإسرائيليّ بما يُزعزع الروايّة القوميّة المهيمنة التي تعكس أتون الصَّهر. ويجري في هذا الحيّز إبراز خطوط الفصل الإثنيّة والقوميّة والاقتصاديّة، التي يحاولون تمويهها في الحيّز العامّ الرسميّ (الجيش وحركات الشبيبة والجهاز التربويّ). في هذه الفضاءات، تشكّل ممارسات التشخيص الخارجيّ، والرفض أو المناداة بالاسم («أنت سيما بيطون»، «لا دخول للعرصات»)، عنصرًا مركزيًا في هَيْكلة الهُويّة الذاتيّة لدى العرصات والفريحات.

يجري تمثيل العرص والفريحَه في الثقافة الإسرائيليّة في داخل جوّ كرنفاليّ، وحفلة أقنعة لا تنتهي. فهم يتمثّلون بشكل مبالغ به وسخيف وطنّان. الشخصيّات في كتب كوبي أوز (وخصوصًا في «مجرم دمية») ترسم عالمًا غرائبيًا وكرنفاليًا يفتقر للنظام، ويقوم بتفكيك قوانين المسلكيّات المتخلّفة؛ ويبرز جوجو حَلَسطرا من خلال شكله النّمريّ والعدد الكبير من السلاسل الذهبيّة والشعر الطويل المنطلق؛ وفساتين «ليمور» (التي تؤدّيها أورنا باناي) برزت بألوانها الكثيفة والطنّانة. كلّ هذه الأمور تبرز البُعد المسرحيّ والمزيّف في شخصيّتيّ العرص والفريحَه. لكن، وبالمقابل، فإنّ شخصيّتيْهما ترتبطان بالأصالة والمباشَرَة الخالية من الأقنعة. مثال جيّد على ذلك نجده في الظهور الأوّل للمغنية مَرجول (مرجليت تْصَنعاني) في التلفزيون، في مقابلة ضمن برنامج الاستضافة «سيباه لسيباه» في القناة الأولى في منتصف سنوات الثمانين، والذي شكّل بوابة الدخول إلى الإجماع الإسرائيليّ. وقد دُعيت مرجليت تصنعاني، وكانت وقتها مغنّية مبتدئة، إلى البرنامج بضيافة ريفكا ميخائيلي مساء الجمعة. وحاولت ميخائيلي تعريفها بلغة حذرة تتحلّى باللياقة السياسيّة، إلاّ أنّ تصنعاني قطعت حديثها وعرّفت نفسها بأنّها «مُغنّية أعراس مستعدّة للغناء في كلّ مكان: الأعراس وأمسيات البارميتسفاه والطهور والحفلات، من دون تمييز. المهمّ من يدفع». وقد أدّت اللغة المباشرة والخالية من حُسن التصرّف مع «أصالة» تصنعاني إلى أسر قلوب المشاهدين. ثمّ تحوّلت اللغة المباشرة الخالية من «الكذب»، على مرّ السنوات، إلى مُركّب مركزيّ في شخصيّات أبطال الثقافة المحليّين على غرار ليمور أو جوجو حلسطرا. ويشير العرص والفريحَه إلى خط التماس القائم بين الغرائبيّة والأصالة، وبين ارتداء القناع أو إخفائه، بين الحقيقة والمختلق. ويشير هذا الوضع إلى الصعوبة التي تواجهها الثقافة الإسرائيليّة في مَوْضَعة شخصيّتيْهما في ضمن قالب هُويّة مُوحّد.

وإلى جانب التقسيمة الجندريّة بين العرص والفريحَه، انضاف في اللغة العبريّة تعريفان مرحليّان: العرصة والفريح (إحدى قريباتي اقترحت هذا التمييز بين العرصة والفريحَه: الفريحَه تخرج بصحبة الرجال، والعرصة تخرج عليهم– وشكرًا لليرون أوحانا على هذا «الخروج»). منظومة العلاقات بين الفئات الأربع تزعزع التقسيمة الثنائيّة بين الرجولة والأنوثة، وتسمح بوجود تسلسل من الاحتمالات الجندريّة، بدلاً من التقسيمة الثنائيّة. فدانا إنترناشيونال، التي تحوّلت من فريح إلى فريحَه، أو من عرص إلى عرصة، تتنقّل بين كلّ الفئات الأربع بشكل متزامن، وهي ترمز للحالة السيّالة القائمة بين هذه الفئات. زدْ على ذلك أنّ شخصيّة دانا إنترناشيونال في الثقافة العبريّة تزعزع نموذج الجسد الرجوليّ الصهيونيّ كما كان هو بدوره مؤشّرًا على التقسيمة الجندريّة والإثنيّة. فصورتها كمتحوّلة جنسيًا– شرقيّ(ة)– عرص(ة)–فريح(ة) تكشف عن ميوعة التقسيمة بين الرجل/ المرأة، وعن تقسيمة «فريح(ة)/ عرص(ة)».

وتُقيم الهُويّة الإسرائيليّة منظومة علاقات جدليّة مع العرص والفريحَه. ففي بعض الأحيان يُعرضان كصورة نيجاتيف تجري

خِتامًا سأعود إلى سمميت بيتان، وهي ليست إلّا سيما بيطون. فإسكتش ناؤور تسيون استند إلى هُلاميّة الهُويّة. وقد لاءمت لغة ومظهر سمميت بيتان السيرة الذاتيّة التي خلقتها لنفسها، إلى أن أعادت الهفوة اللغويّة الصوتَ الحقيقيّ المكبوت. ويصطخب في أساس الإسكتش الخوف من عدم القدرة على التمييز بين سمميت وسيما، وعدم القدرة على التوسيم والتصنيف بشكل واضح وقاطع.

في مقابلها بلورة الهويّة الإسرائيليّة الأثيرة و«الحقيقيّة». وتُرسم صورتهما كصورتيْن ملوِّثتيْن للثقافة الإسرائيليّة عبر لغة غير سويّة وثقافة ضحلة؛ وتُنسب هاتان الصورتان إلى عمليّة «شرقنة» الثقافة العبريّة التي تهدّد الطابع الغربيّ الأوروبيّ السائد في الثقافة الرسميّة. وفي المقابل، يُنسب العرص والفريحَه إلى الإسرائيليّ النموذجيّ، الضّاجّ والفظّ، ذلك الذي يُلحق العار بالأمة في الأماكن الأجنبيّة (الأوروبيّة). وتكشف هذه الجدليّة عن التسلسل الذي تُموضع الإسرائيليّة نفسها فيه، بين الأوروبيّة والشرقيّة.

خِتامًا سأعود إلى سمميت بيتان، وهي ليست إلّا سيما بيطون. فإسكتش ناؤور تسيون استند إلى هُلاميّة الهُويّة. وقد لاءمت لغة ومظهر سمميت بيتان السيرة الذاتيّة التي خلقتها لنفسها، إلى أن أعادت الهفوة اللغويّة الصوتَ الحقيقيّ المكبوت. ويصطخب في أساس الإسكتش الخوف من عدم القدرة على التمييز بين سمميت وسيما، وعدم القدرة على التوسيم والتصنيف بشكل واضح وقاطع. وقد أدّى تغلغل اللغة الفريحيّة إلى الكشف عن «الشخصيّة الحقيقيّة»، ما يؤدّي إلى موجات ضحك وزفرة ارتياح بخصوص الكشف عن الفارق والتزييف. وقد اختلطت الحاجة إلى تشخيص الفريحَه كشخصيّة أصيلة مع الحاجة إلى تسخيفها، وذلك عبر تحويلها إلى شخصيّة مختلقة.

تُموضع الثقافة الإسرائيليّة شخصيّتَيِّ العرص والفريحَه عند التماس بين الأصليّ والغرائبيّ، بين الأثيل والمخبوء، بين الأساسيّ والمُهيْكل، ولا يمكن تصنيف هاتيْن الصورتيْن في ضمن نظام الهُويات الجمعيّ الإسرائيليّ. العرص والفريحَه هما فئتان غير متماسكتيْن، سيّالتيْن وجامدتيْن في الوقت ذاته، تنجحان في إنشاء عمليّة مزدوجة من التأشير والتصنيف، ومن الكَسر والاستئناف على التصنيفات المُطهَّرة مثل الحداثة مقابل التقاليد، الرجولة مقابل الأنوثة، الشرقيّة مقابل الغربيّة.

[مترجم عن العبرية. ترجمة علاء حليحل]

أجرى المقابلة: بلال ضاهر (*)

مقابلة خاصة

مع الباحث في شؤون الاستيطان درور إتكيس:

مشروع نهب الأراضي في الضفة الغربية ينفذ من خلال قناتين؛ رسمية وغير رسمية

الواقع الذي خلقته إسرائيل في الضفة هو: استول على أكبر كمية من الأرض بصورة رسمية، وما لا تستطيع الاستيلاء عليه بصورة رسمية إسرقه بصورة غير رسمية* الاستيطان في الضفة يكمل خطا موجودا قبل العام ١٩٦٧، والمستوطنون محقون عندما يقولون «نحن الصهاينة الحقيقيون»

تضع إسرائيل عراقيل عديدة أمام إجراء مفاوضات مع الفلسطينيين، بينها شروط أمنية وشرط الاعتراف بـ«الدول اليهودية»، ويبدو أن الهدف الأساس من وراء ذلك هو المماطلة من أجل الاستمرار في عملية سلب الأراضي في الضفة الغربية وتوسيع المستوطنات. ولا شك في أن عملية سلب الأراضي هي دليل واضح على رفض إسرائيل، وخاصة رئيس حكومتها بنيامين نتنياهو، التوصل إلى أي نوع من التسوية للصراع.

ويغلق المشروع الاستيطاني الطريق أمام التوصل إلى أي حل للصراع. ورغم أن هناك أفكارا مطروحة حول تبادل أراض، بحيث تضم إسرائيل الكتل الاستيطانية إليها، مقابل ضم مساحات من الأراضي تقع داخل الخط الأخضر إلى الدولة الفلسطينية، إلا أن هذه الاقتراحات لم تعد قابلة للتطبيق. إذ إن إسرائيل سعت في السنوات الماضية إلى توسيع المستوطنات الواقعة خارج الكتل الاستيطانية وشرعنة بؤر استيطانية عشوائية. كذلك فإن تكثيف الاستيطان في القدس الشرقية– وليس في المستوطنات الكبرى فقط– وإقامة البؤر الاستيطانية داخل الأحياء الفلسطينية وتكثيف الاستيطان في البلدة القديمة، يمنع وجود تواصل جغرافي بين الضفة والقدس.

ويؤكد الباحث الإسرائيلي في شؤون الاستيطان، درور إتكيس، في مقابلة خاصة أجرتها معه مجلة «قضايا إسرائيلية»، أن خريطة المستوطنات، سواء في الضفة الغربية أو القدس الشرقية، تمنع قيام كيان سياسي فلسطيني، وأن إسرائيل لا تنوي وقف الاستيطان بأي حال. ويرى أن غاية إسرائيل هي الاستيلاء على

أكبر مساحة من أراضي الضفة، والأمر نفسه ينطبق على القدس الشرقية، واستيطانها.

ولفت إتكيس إلى أن ثمة اختلافا بين وضع القدس ووضع الضفة، على ضوء أن إسرائيل تفرض قوانينها على القدس المحتلة، وتعتبر ذلك ضما، بينما يسري في الضفة القانون العسكري. وتمارس إسرائيل أساليب عديدة ومتنوعة بهدف سلب أراضي الضفة، وكشف عن أنها من أجل تنفيذ مشروع سلب الأراضي، تستخدم قناتين، واحدة رسمية وأخرى غير رسمية، وهما متداخلتان وتحت إشراف وقيادة وتشجيع حكومات إسرائيل المتعاقبة.

ويرى إتكيس أن جذور الصراع تعود إلى العام ١٩٤٨ وليس إلى العام ١٩٦٧ ، وأن المنطق الذي يوجه الاستيطان بعد العام ١٩٦٧ هو المنطق نفسه الذي وجّه الاستيطان منذ العام ١٩٤٨ . ومن هذه الرؤية يعتبر إتكيس أن فهم اليمين الإسرائيلي لجذور الصراع أفضل من فهم اليسار له، مشيرا في الوقت نفسه إلى أن اليسار الإسرائيلي يعاني من أزمة عميقة وأن حركة «السلام الآن» الإسرائيلية المناهضة للاحتلال والاستيطان قد «ماتت» أمام عينيه.

ويبدأ إتكيس المقابلة بالتحدث عن نفسه وعن عائلته والأجواء السياسية خصوصا التي نشأ في كنفها. وقال «وُلدت في شهر تموز العام ١٩٦٨ ، أي بعد ١١ شهرا من حرب حزيران العام ١٩٦٧ ، واحتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة وشبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان. وعمليا، إذا ما نظرت إلى حياتي، فإنها متشابكة داخل الواقع الذي نشأ في البلاد في العام ١٩٦٧ . فعندما كنت في الثالثة من عمري، قرر والداي الانتقال للسكن في مستوطنة 'غفعات هميفتار' في القدس الشرقية. وعمليا فإن حياتي كلها متشابكة داخل هذه القصة. عائلتي متدينة، وهي تنتمي من الناحية السياسية إلى اليسار الديني. حينذاك، كانت هناك حركة متدينة شقيقة لحركة 'السلام الآن' تدعى 'عوز فِشالوم'. وبإمكاني القول إنه نشأت في عائلة توجد فيها كافة التناقضات الموجودة داخل اليسار اليهودي الصهيوني الديني. وأقول هذا بنظرة نقدية إلى الوراء لشاب نشأ في هذا الجو. وفي حينه لم يعتقد أحد أننا نسكن في مستوطنة. وبصورة عامة، رأى الإسرائيليون الذين يعيشون في هذه البلاد أن الاستيطان هو أمر شرعي ويتلاءم مع مصالحهم، وأن المستوطنات موجودة خارج القدس. وكما قلت، فإن والداي كانا ينتميان لليسار الصهيوني وكانا يصوتان لحزب العمل أو لحزب 'شيلي' (حزب صهيوني يساري يدعى «شالوم ليسرائيل» أي سلام لإسرائيل، وأسسه مئير بَعيل وأوري أفنيري في العام ١٩٧٧). وفي

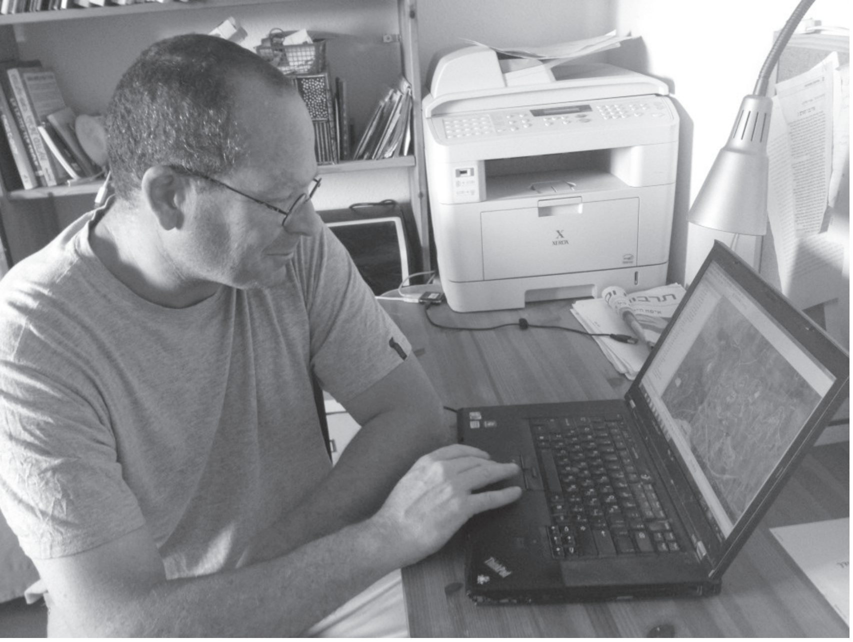

درور إتكيس.

الوقت نفسه، نشأنا في العائلة على مفاهيم إسرائيلية متجانسة. وإذا نظرت إلى طفولتي، فإنه في مسافة تبعد ٥٠٠ متر شمالا من بيتنا كان يبدأ حي شعفاط، وعلى بعد ٢٠٠ متر جنوبا كانت هناك أربعة أو خمسة بيوت، وكنا نسميها بيوت العرب. ولم نفكر أبدا في حينه، ولم نسأل، عن تاريخ المكان الذي نشأنا فيه. وبعد سنوات طويلة عرفت أن سكان 'بيوت العرب' هذه نزحوا إليها من قرية لفتا المهجرة».

سؤال: عرفت ذلك بعد أن بدأت تهتم بالموضوع الفلسطيني؟

إتكيس: «بعد ذلك بسنوات عديدة، وعندما أصبحت بالغا وقادرا على النظر إلى المكان الذي كبرت فيه بصورة نقدية. إذ تربينا في عائلتي على الجرأة بطرح أسئلة وعلى أننا معادون للعنصرية، لكن من الجهة الأخرى كانت هناك حدود التابو الصهيوني، أي أننا كنا نعتبر المشروع اليهودي – الصهيوني في البلاد هو مشروع شرعي. ووالداي هما من مواليد تل أبيب، لكن جداي وجدتاي لم يولدوا في البلاد، وإنما هاجروا إليها. ثلاثة منهم هاجروا من أوروبا وجدة جاءت من دمشق. وإذا نظرت إليهم وإلى تجربتهم في الحياة والمجتمعات التي بلورت جيل والداي، اللذين وُلدا في العام ١٩٣٩ ، فإنه بإمكانك أن ترى وجود مخاوف أساسية جدا لديهم. وبالطبع، والدي خدم في الجيش الإسرائيلي واستمر في الخدمة ضمن قوات الاحتياط، وشارك في حرب العام ١٩٦٧ . وقُتل في هذه الحرب عدد من أصدقائهم، وهؤلاء دخلوا في أسطورة أو روح العائلة، التي تقول إنهم ضحوا بحياتهم. المفاهيم التي كانت سائدة في عائلتنا، وكأننا مركز العالم لكننا معزولون عن الحيّز الذي نعيش فيه، ومن الجهة الأخرى ينظرون إلى أنفسهم بمصطلحات ليبرالية ويبغضون

الاستيطان: شراكة كاملة مع جيش الاحتلال.

العنصرية ويتحدثون عن تسوية تاريخية (مع الفلسطينيين). وأنا أتساءل كيف يمكن إدخال هذه المفاهيم كلها إلى عائلة واحدة».

سؤال: والدك هو أستاذ في الجامعة؟

إتكيس: «نعم، هو بروفسور في التاريخ في الجامعة العبرية في القدس. وهو من النوع الذي لديه أدوات لتفكير نقدي. لكننا معتادون على التفكير بصورة نقدية تجاه الآخرين، ويصبح هذا الأمر أصعب عندما تكون الأمور متعلقة بنا».

سؤال: هل درست في الجامعة؟

إتكيس: «حصلت على اللقب الأول في التاريخ من الجامعة العبرية. والتعليم في الجامعة ساهم وعزز اتجاهات التفكير لدي، علما أني لا أعتبر شخصا متعلما بمفاهيم اليوم، لأن التوجه الآن هو نحو الدراسة للقب الثاني والثالث. لكن المواضيع التي أعمل بها وأواجهها مرتبطة بالواقع الذي أعيش فيه».

سؤال: هل أديت الخدمة العسكرية الإلزامية؟

إتكيس: «نعم. لقد كانت خدمتي العسكرية التجربة الحياتية التي بلورت أفكاري أكثر من أي شيء آخر، فأنا خرّيج الانتفاضة الأولى. لقد تجندت في العام ١٩٨٦، وفي العام التالي اندلعت الانتفاضة. سنتان من خدمتي العسكرية كنت فيهما خاضعا للانتفاضة الأولى. وهذا هو المكان الذي رأيت فيه لأول مرة كيف أن دولة تمارس بشكل منهجي وسائل إرهابية ضد سكان مدنيين. والجيش هو المكان الذي أدركت فيه أني جزء من نظام يحكم بالإرهاب. وفي هذه الفترة، عندما كنت في سن ٢١ - ٢٢ عاما، لم أكن موجودا بعد في عقلية تسمح لي بالقول إني ضد هذا الإرهاب. كان ينبغي أن تمر سنوات عديدة أخرى بعد ذلك، من المراجعة والتفكير، وقضيتها خارج البلاد، من أجل أن أفهم وأستوعب بشكل أفضل كيف بإمكاني أن أقاوم الوضع. وقد مكثت سبع سنوات خارج البلاد، تجولت خلالها في العالم، وهذه السنوات ساهمت في بلورت تفكيري وشخصيتي بشكل كبير جدا».

«التسبب بصدام بين الحكومة والمستوطنين»

سؤال: هل بدأت تعمل في مجال مراقبة المستوطنات بعد عودتك من الخارج؟

إتكيس: «كان عمري ٢٨ عاما عندما عدت إلى البلاد، وعندما بلغت سن الثلاثين عاما بدأت أدرس في الجامعة. وكان واضحا لي، بعد عودتي إلى البلاد، أن أحد الأمور التي أريد أن أمارسها، وكان لدي الكثير من الوقت لأفكر في ذلك، هو موضوع معرفة البلاد وأن أكون مرشدا سياحيا. وكان واضح لي أيضا، أن عملي في هذا المجال لن يكون تقليديا، وإنما أن أتمكن من خلاله من التعرف على زوايا مختلفة للواقع الحاصل هنا. والفكرة التي دفعتني إلى تعلم دورة مرشد سياحي، كانت بناء إطار ما لرحلات مخصصة لأشخاص يهتمون بالثقافة، بمفهومها الواسع، الذي يشمل جوانب سياسية. وفعلا عملت كمرشد سياحي، لمجموعات من خارج البلاد بالأساس، التي كانت تهتم بالواقع السياسي. وجزء من الجولات السياحية التي نظمتها شملت زيارات في الضفة الغربية والقرى العربية غير المعترف بها في النقب والجليل. أي التعامل مع الواقع العربي- الفلسطيني والتوتر الحاصل، الذي يجهل أغلبية اليهود وجوده أو أنهم يتنصلون منه. وعلي أن أشير هنا إلى أنه في هذه الفترة، في العام ١٩٩٦، أي بعد عام على اغتيال رئيس الحكومة إسحق رابين، والسنوات الجميلة لعملية أوسلو كانت قد أصبحت من ورائنا، وبنيامين نتنياهو وصل إلى ولايته الأولى في رئاسة الحكومة، وكانت قد وقعت مجزرة الحرم الإبراهيمي التي نفذها باروخ غولدشطاين، وحماس نفذت عمليات تفجير في حافلات إسرائيلية. أي أن السنوات الجميلة بين ١٩٩٣ - ١٩٩٥ باتت من ورائنا. وأنا أصلا كنت في خارج البلاد في هذه السنوات ولم أشهد على النهضة السياسية الليبرالية خلالها. لكني أعلم جيدا أن الأجواء كانت مختلفة، وأنه كان هناك أمل بأن يكون هنا واقع مختلف. وأذكر أنه بعد العام ١٩٩٦ استحوذت علي فكرة التجول في الضفة الغربية، وكنت أسافر بالحافلات وسيارات الأجرة التي تتنقل بين المدن والقرى الفلسطينية. لقد جذبني هذا العالم. ووصلت إلى هذه المنطقة مثل سائح، ولكن كسائح يعرف ولا يعرف المكان. فمن

على مدار العشر سنوات الأخيرة، منذ العام ٢٠٠٥، أرغمت الإدارة المدنية في تسليمي كميات هائلة من المعطيات الديجيتالية (الرقمية) التي تستند إلى صور من الجو. وما جرى عمليا، هو أن هذا التوجه كان فاتحة لعشرات الالتماسات التي قدمت ضد الدولة والمستوطنين والمستوطنات بشأن أعمال بناء غير قانونية، كتلك الموجودة في البؤرة الاستيطانية العشوائية 'ميغرون' أو 'هئولبنا' (في مستوطنة "بيت إيل" والتي ثبت أمام المحكمة العليا الإسرائيلية أنها مقامة على أراض بملكية فلسطينية خاصة).

جهة، كنت هناك طوال ثلاث سنوات من حياتي كجندي. ومعرفتي للواقع كجندي كانت من خلال شق ضيق جدا. وكنت محكوما بأن أرى الواقع بهذا الشكل. ومن الجهة الأخرى، جئت إلى أماكن في الضفة كنت قد مكثت فيها في الماضي، لكني لم أتعرف عليها. واستغرق وقت حتى أدركت أنه خلال هذه السنوات جرى شق شوارع التفافية وكبرت المستوطنات وأقيمت بؤر استيطانية عشوائية، وكل هذا غير وجه الضفة بالكامل. إذ أن التسعينيات، من ١٩٩١ وحتى العام ٢٠٠٠، كانت سنوات مجنونة، وفي هذه السنوات جرت أعمال بناء مكثفة للغاية في المستوطنات».

سؤال: ماذا يعني، برأيك، أن الإسرائيليين والفلسطينيين صعدا إلى طريق سلام، بتوقيع اتفاقيات أوسلو في العام ١٩٩٣، بينما إسرائيل كثّفت البناء الاستيطاني والمشاريع الاستيطانية، مثل الشوارع الالتفافية؟

إتكيس: «هذا يعني أن الجمهور الإسرائيلي لم يكن لديه تفهما لأهمية العملية السياسية. وهذا يعني أن حكومة إسرائيل، أي حكومة إسرائيلية، بما في ذلك حكومة رابين، لم تنتهج سياسة تتلاءم مع الأقوال التي نثرتها حول السلام. لم تكن هناك أي حكومة إسرائيلية، منذ العام ١٩٩٣ وحتى اليوم، التي انتهجت سياسة مشابهة ولو بشيء ما لحل الدولتين للشعبين. وعندما بدأت أتجول في الضفة، في السنوات ١٩٩٧-١٩٩٨، ولم أتعرف على المكان بسبب التغيرات التي حدثت فيه، من بناء واسع في المستوطنات وشق شوارع التفافية، أدركت أن عملية أوسلو انتهت. وبعد ذلك اندلعت الانتفاضة الثانية، وكنت قد بدأت دراستي في الجامعة. وفي نهاية العام ٢٠٠١ توجهت إلي حركة 'السلام الآن' واقترحوا عليّ العمل في موضوع مراقبة المستوطنات».

سؤال: لماذا توجهوا إليك بالذات؟

إتكيس: «لأنهم كانوا يعرفون أني أعمل كمرشد سياحي في الضفة، واعتقدوا أني أعرف الضفة بصورة جيدة نسبيا. واليوم، أنا أقارن بين ما كنت أعرفه وما كنت لا أعرفه حول الضفة، قياسا بما أعرفه اليوم، فإن النتيجة هي أنني لم أكن أعرف شيئا حينذاك. لكن العمل على مدار خمس سنوات ونصف السنة في «السلام الآن» كانت بمثابة مدرسة ابتدائية، وكانت الأساس الذي بنيت عليه أبحاثا ودراسات كثيرة لاحقا. وقد تركت «السلام الآن» في العام ٢٠٠٧، وبعدها أخذت هذا العمل إلى اتجاهات في المجال القانوني. ففي الفترة الأخيرة من عملي في «السلام الآن» بدأت أهتم، وأدرك أيضا، الوضع القانوني للأراضي في الضفة، وهو أمر لم يكن موجودا قبل ذلك. وطوّرت مجالا كاملا من المعرفة، الذي استند إلى المسح الجغرافي، وهو عمل تنفذه الإدارة المدنية (في الضفة والتابعة لجيش الاحتلال الإسرائيلي) في المنطقة C. وهذه المعلومات تشمل كميات هائلة من الوثائق، وتشمل صورا التقطت من الجو، ومن أجل الحصول عليها قدمت دعاوى والتماسات بالاستناد إلى قانون حرية المعلومات. وعمليا، فإنه على مدار العشر سنوات الأخيرة، منذ العام ٢٠٠٥، أرغمت الإدارة المدنية في تسليمي كميات هائلة من المعطيات الديجيتالية (الرقمية) التي تستند إلى صور من الجو. وما جرى عمليا، هو أن هذا التوجه كان فاتحة لعشرات الالتماسات التي قدمت ضد الدولة والمستوطنين والمستوطنات بشأن أعمال بناء غير قانونية، كتلك الموجودة في البؤرة الاستيطانية العشوائية «ميغرون» أو «هئولبنا» (في مستوطنة «بيت إيل» والتي ثبت أمام المحكمة العليا الإسرائيلية أنها مقامة على أراض بملكية فلسطينية خاصة). وبإمكاني القول إن جميع الالتماسات المتعلقة بالأراضي في الضفة الغربية، والتي قُدمت خلال السنوات العشر الأخيرة، استندت إلى هذه المعلومات التي استخرجتها من الإدارة المدنية.

إحدى مميزات الاحتلال الإسرائيلي في الضفة هي أنه بصورة رسمية يدور الحديث عن جهاز ديمقراطي لديه قوانين ومحاكم، وأنه توجد بيروقراطية متشعبة ومتطورة جدا وقد تطورت على مدار عشرات السنين. ويبدو أن كل هذه الأمور من شأنها أن تقيد أنشطة الدولة وتراقبها وتحدد مسارها. لكن إذا كانت المصلحة العليا، القيمة العليا، هي تهويد الأرض، كما يحدث فعلا، فإن حكم القانون يتبخر، لأنه يوجد منطق يحرك كل هذه القصة. والحديث هنا لا يدور عن حادث. لا شيء عفوي.

وقد قررت أن أتخصص في هذا المجال والتركيز عليه خلال عملي في منظمة 'ييش دين' الحقوقية الإسرائيلية، التي تأسست في تلك السنوات، والتي انتقلت للعمل فيها بعدما تركت 'السلام الآن'. ومنذ العام ٢٠٠٨، وعلى مدار ثلاث سنوات عملت بصورة منهجية فقط في بناء التماسات إلى المحكمة العليا، وكان الهدف هو فضح الحكومة الإسرائيلية، ووضع مرآة أمامها وأمام الجمهور الإسرائيلي حول الوضع الحقيقي الحاصل ميدانيا في الضفة. والهدف هو أن يرى الجمهور الإسرائيلي ممارسات دولته في الضفة، من بناء مستوطنات ونهب أراض، كي لا يستمر الإسرائيليون في لعبتهم، كأنهم لم يروا ولم يسمعوا بما يحدث هناك. وأنا لا أدعي أن الجمهور الإسرائيلي كله كان يعلم بهذه الممارسات في الضفة. وعمليا كان هناك هدف، وهو التسبب بصدام بين الحكومة والمستوطنين. فحتى اليوم هم يسرقون سوية، وجميعنا يعلم أنهم يسرقون وأن لا شيء نما فجأة».

«المنطق نفسه وجّه الاستيطان بعد العام ١٩٦٧ وقبله»

سؤال: كيف يتم إقامة مستوطنة؟

إتكيس: «في الإدارة المدنية. وفي جميع الحالات الحكومة ترى ما يحدث وتقدم المساعدة. وينبغي التوضيح أن مشروع نهب الأراضي في الضفة يُنفذ من خلال قناتين: قناة رسمية وقناة غير رسمية، وكلتاهما مرتبطان بالحكومة بالقدر نفسه. والمقصود بالقناة الرسمية هو كل ما فعلته وتفعله حكومات إسرائيل، منذ العام ١٩٦٧ وحتى اليوم، من أجل نقل أراض في الضفة إلى أيدي إسرائيليين، سواء من خلال وضع اليد على أراض لاحتياجات أمنية في البداية، أو من خلال الإعلان عن أراضي دولة، أو من خلال مصادرة أراض. كل هذه أساليب قضائية هدفها واحد ووحيد ومعلن أيضا وهو تسليم أراض إلى أيد إسرائيلية. وهناك أكثر من ١٢٠ مستوطنة رسمية في الضفة، عدا المستوطنات في القدس الشرقية، وهناك القصة مختلفة بعض الشيء لأنه توجد عملية ضم غير قانونية وإسرائيل تتعامل معها وكأن القانون الإسرائيلي يسري عليها. ونتحدث الآن عن الضفة، وهي مكان لا يسري عليه القانون الإسرائيلي، وإنما القانون العسكري. وبواسطة القناة الرسمية، سلمت حكومات إسرائيل مئات آلاف الدونمات إلى أيد إسرائيلية بطرق عدة. ومن أجل فهم الواقع في الضفة، ينبغي أن نعرف أنه إلى جانب هذه القناة الرسمية، توجد قناة أخرى لنقل أراض إلى أيد إسرائيلية بصورة غير رسمية، بواسطة السيطرة على أراض بهذه الطريقة أو تلك، مثل السيطرة على أراض زراعية، أو إقامة بؤر استيطانية عشوائية، أو دخول مستوطنين إلى مناطق إطلاق نار. هناك ألف طريقة يستخدمها الحكم العسكري الذي ليس لديه أي كوابح، لتسليم أراض إلى أيدي مواطنيه».

سؤال: ما هي الحاجة إلى قناة رسمية وأخرى غير رسمية؟

إتكيس: «إحدى مميزات الاحتلال الإسرائيلي في الضفة هي أنه بصورة رسمية يدور الحديث عن جهاز ديمقراطي لديه قوانين ومحاكم، وأنه توجد بيروقراطية متشعبة ومتطورة جدا وقد تطورت على مدار عشرات السنين. ويبدو أن كل هذه الأمور من شأنها أن تقيد أنشطة الدولة وتراقبها وتحدد مسارها. لكن إذا كانت المصلحة العليا، القيمة العليا، هي تهويد الأرض، كما يحدث فعلا، فإن حكم القانون يتبخر، لأنه يوجد منطق يحرك كل هذه القصة. والحديث هنا لا يدور عن حادث. لا شيء عفوي. والبؤر الاستيطانية العشوائية لا تقام بشكل عفوي. ويدور الحديث هنا عن جهاز يعمل بصورة منهجية ومنطقية، بالنسبة لإسرائيل، وهو

لا توجد صحافة في إسرائيل، ربما يوجد إعلام. خذ مثلا موقع 'واللا' الالكتروني، وهو الموقع الأكثر انتشارا في إسرائيل. وهذا الموقع يتجاهل جوانب مهمة من الواقع في الضفة بصورة مثابرة. وفجأة، تراه ينشر تقريرا يتساءل فيه حول ما إذا كان هناك نظام أبرتهايد (تفرقة عنصرية) في الضفة. وما يهم وسائل الإعلام في إسرائيل هو حجم مشاهدتها. وهي بمعظمها وسائل إعلام خاصة يتعين عليها استعادة الاستثمارات فيها، وعليها أن تنشر الإعلانات، ولا تهمها جنيف ورام الله ومخيم بلاطة للاجئين في نابلس، وإنما هي مهتمة بأمور أخرى.

يلغي نفسه من أجل تحقيق المصلحة العليا، التي تتمثل بنقل أكبر كمية ممكنة من الأراضي إلى أيد إسرائيلية في الضفة. والآن ينبغي الحديث عن الأمور في سياقها التاريخي. إنها تكمل خطا قائما منذ ما قبل العام ١٩٦٧. والمستوطنون محقون عندما يقولون إنهم الصهاينة الحقيقيون. وهذا يحدث في سياق قانوني وتاريخي آخر عما قبل العام ١٩٦٧ وقبل العام ١٩٤٨. فالصهيونية لم تأت لحل مشكلة العربي وإنما من أجل حل مشكلة اليهودي. وإذا نظرت إلى المنطق من وراء الاستيطان في الضفة بعد العام ١٩٦٧ ستجد أنه المنطق نفسه الذي وجه الاستيطان قبل ذلك، رغم أن السياق مختلف».

سؤال: تعهد رئيس الحكومة الإسرائيلي السابق، ايهود أولمرت، بعدم إقامة مستوطنات جديدة. ماذا حدث منذئذ؟

إتكيس: «لا يوجد شيء كهذا، البناء في المستوطنات يجري طوال الوقت. وهذا الأمر أشبه بركوب الدراجة الهوائية، فعندما تتوقف عن تحريك دواليبها ستسقط عنها. وهكذا هو الأمر بالنسبة للمستوطنات، عندما يتوقف المشروع الاستيطاني عن التحرك فإنه سيسقط. هذا هو المفهوم. وإحدى النقاط التي تميز النفسية الإسرائيلية هي انعدام القدرة على التحرر من المرحلة الثورية (أي احتلال الأرض والاستيطان). وإذا لم يتحرر الإسرائيليون من فكرة 'التنظيم السري' فإنه لن يحدث تغيير. وإذا توقفت إسرائيل عن البناء في المستوطنات فإنه سيُطرح السؤال حول سبب اغتصاب الأرض وهؤلاء الناس الرازحين تحت الاحتلال».

سؤال: إسرائيل توهم العالم بأنها تميّز بين مستوطنات «قانونية» ومستوطنات غير قانونية، مثل البؤر الاستيطانية العشوائية.

إتكيس: «الحديث لا يدور عن البؤر الاستيطانية العشوائية فقط. ولو سألتني قبل عشر سنوات عن هذا التقسيم بين بؤر استيطانية عشوائية غير رسمية ومستوطنات قانونية، ربما كنت سأقول لك نعم هناك مستوطنات قانونية وأخرى غير قانونية، بالمفهوم الإسرائيلي طبعا. لكني منذئذ أدركت أمورا كثيرة، ومن بينها أن كمية البناء غير القانوني في المستوطنات، بما في ذلك البناء الاستيطاني على أراض بملكية فلسطينية خاصة، هي ظاهرة أكبر بكثير من البؤر الاستيطانية العشوائية. ونهب الأراضي، كما قلت سابقا، يتم من خلال قناتين تعيشان سوية ومتداخلتين ببعضهما. فبيت أفيغدور ليبرمان في مستوطنة نوكديك مبني على أراضي دولة، أي الأراضي التي تم سلبها بواسطة القناة الرسمية. ومقابل بيته، وراء الشارع الذي يمر أمام بيته، يبدأ 'متنزه نوكديم' ومساحته أربعون دونما. وهذا 'المتنزه' مقام على أراضي عائلة فلسطينية من قرية تقوع الفلسطينية (في منطقة بيت لحم)، استولى عليها المستوطنون في العام ١٩٩٢، وحطوها بسياج وأغلقوا البوابة ومنعوا أصحابها من الدخول إليها. وبعد خمس سنوات من الاستيلاء على هذه الأراضي أقام المستوطنون والكيرن كييمت 'المتنزه' فيها 'من أجل رفاهية الجمهور'. والواقع الذي خلقته إسرائيل في الضفة هو: استول على أكبر كمية من الأرض بصورة رسمية، وما لا تستطيع الاستيلاء عليه بصورة رسمية إسرقه بصورة غير رسمية. وإسرائيل لا يمكنها التوقف عن البناء في المستوطنات، تماما مثلما لا يمكنها التوقف عن البناء في حَريش ونتسيرت عيليت (مدينتان يهوديتان داخل الخط الأخضر وأقيمتا على أراض عربية مصادرة). أي أنه يوجد هنا تعبير واحد للمأساة. والمنطق نفسه يعمل في نتسيرت عيليت وفي القدس الشرقية، لكن الأدوات القانونية مختلفة. وهذا أيضا المنطق نفسه الذي يرفض، بأي شكل، الاعتراف بحقيقة أنه توجد هنا مجموعة أخرى لديها حقوق تاريخية».

جيش الاحتلال: دور بنيوي في الاستيطان.

تأثير خريطة المستوطنات في القدس

سؤال: توجد في القدس الشرقية المستوطنات الكبرى، التي تسميها إسرائيل «الأحياء اليهودية»، وهناك بؤر استيطانية، صغيرة نسبيا، تنتشر في قلب الأحياء الفلسطينية والبلدة القديمة. ما الذي تفعله خريطة المستوطنات في القدس الشرقية؟

إتكيس: «إنها العقلية الإسرائيلية نفسها. وخريطة المستوطنات في القدس الشرقية تؤثر سلبا على البشر أكثر من تأثيرها على الأرض. إنها تشطر المدينة، وتخلق جيوبا صغيرة نسبيا توجد فيها سيطرة يهودية عنيفة على محيطها كله. والمستوطنات الكبرى في القدس أقيمت بموجب خط الضم. وجرى رسم هذا الخط بعد عشرين يوما من احتلال المدينة، في العام ١٩٦٧. وما زال ساريا حتى اليوم، بعد ٤٨ عاما من الاحتلال. وهذا الخط مليء بالتناقضات الداخلية التي لا تستطيع إسرائيل مواجهتها. فعندما ضمت إسرائيل القدس الشرقية والقرى الفلسطينية المحيطة بها كانت مساحتها ٧٠ كيلومترا مربعا وكان يسكنها عشرات آلاف الفلسطينيين. واليوم يسكن في هذه المناطق حوالي ٣٠٠ ألف فلسطيني، وقسم كبير منهم يسكن في مناطق لا تسيطر إسرائيل فيها بصورة مباشرة، مثل عناتا وسميراميس وراس خميس، رغم أنه بالنسبة لإسرائيل هذه المناطق هي القدس وخاضعة لنفوذ بلدية القدس. لكن من الناحية الأخرى فإن لا أحد يسيطر في هذه المناطق، وهي واقعة بين القدس ومناطق السلطة الفلسطينية، وهذا الوضع يخلق طفرات وظواهر سلبية للغاية. وإسرائيل لا يمكنها التنازل عن هذه المناطق، لأنها لو تنازلت عنها ستكشف عورتها، ستكشف عورة كل هذا الضم الكاذب. ومن الجهة الثانية، إسرائيل لا تريد تحمل المسؤولية عن السكان. والسكان بقوا في الوسط، وحياتهم تبدو كأنهم يعيشون في الغاب. وبالطبع، فإن خريطة المستوطنات تخلق واقعا يمنع قيام كيان سياسي فلسطيني».

سؤال: وهذا الواقع يسري على الضفة الغربية أيضا؟

إتكيس: «هذا الواقع أقوى في الضفة. فإذا كانت إسرائيل قد ضمت القدس الشرقية وتدعي أن هناك نوعا من الاندماج المدني، فإن هذا الأمر ليس قائما في الضفة».

سؤال: أنت تقول إن غالبية الإسرائيليين لا يشعرون، أو ليسوا مطلعين، على ممارسات الاحتلال في الضفة الغربية. هل تعتقد أن الصحافة الإسرائيلية لا تقوم بدورها في هذه الناحية؟

إتكيس: «لا توجد صحافة في إسرائيل، ربما يوجد إعلام. خذ مثلا موقع 'واللا' الالكتروني، وهو الموقع الأكثر انتشارا في إسرائيل. وهذا الموقع يتجاهل جوانب مهمة من الواقع في الضفة بصورة مثابرة. وفجأة، تراه ينشر تقريرا يتساءل فيه حول ما إذا كان هناك نظام أبرتهايد (تفرقة عنصرية) في الضفة. وما يهم وسائل الإعلام في إسرائيل هو حجم مشاهدتها. وهي بمعظمها وسائل إعلام خاصة يتعين عليها استعادة الاستثمارات فيها، وعليها أن تنشر الإعلانات، ولا تهمها جنيف ورام الله ومخيم بلاطة للاجئين في نابلس، وإنما هي مهتمة بأمور أخرى. وأعتقد أن غالبية الإسرائيليين يعيشون بمعزل عن تاريخ هذه البلاد، عن تاريخ ١٥٠٠ عام مضى، تحدثوا خلالها هنا بالعربية. والإسرائيليون معزولون عن الحاضر بالأساس. وأنا لا أفهم مدى انسداد عقولهم، وكيف أن الإسرائيلي لا يسأل نفسه عن أناس يعيشون إلى جانبه، عمّ يتحدثون، بماذا يفكرون، ماذا يقرأون. هذا أمر محزن ووضع مأساوي».

«الوضع سيكون أسوأ في المستقبل»

سؤال: هل لديك توقعات تجاه المستقبل؟

إتكيس: «واضح أن الوضع سيكون أسوأ. وحتى لو أن الوضع سيتحسن يوما ما، فإنه قبل ذلك ستسوء الأمور. وأعتقد أننا ذاهبون إلى فترة صعبة، أو حتى إلى فترات أسوأ. هذا واضح. ونحن موجودون اليوم في وضع ينتشر فيه الوباء، المرض، السرطان، في الجسد من الناحية الثقافية في إسرائيل. المجتمع فاسد وعفن. والوضع ليس بحال أفضل لدى الفلسطينيين. لكني أنظر إلى المجتمع اليهودي في إسرائيل، حيث الوضع عفن للغاية من حيث نظرته إلى الحيز الذي يعيش فيه».

سؤال: كيف يمكن حدوث تغيير في الوضع، إذا كان الوضع في إسرائيل لا يتغير من خلال الانتخابات؟

إتكيس: «ينبغي أن يحدث هنا انهيار اقتصادي وثقافي».

سؤال: هل يمكن أن تحرك حملة المقاطعة الدولية شيئا في إسرائيل؟

إتكيس: «أكيد. أنا أؤيد ذلك جدا. وسيكون للمقاطعة تأثير لأنه يوجد في إسرائيل طبقة وسطى. والمقاطعة ضد دولة لا توجد فيها طبقة وسطى، كسورية مثلا، لن يؤثر عليها. لكن في إسرائيل توجد طبقة وسطى، وهذه الطبقة هي الأكثر تأثرا من المقاطعة. إذ يمكن أن تغلق أماكن في العالم بوجهها، وهي الطبقة المرتبطة بأوروبا».

سؤال: هل ستتأثر هذه الطبقة بحيث تغيّر مفاهيمها أيضا؟

إتكيس: «هذا واضح. ستحدث هنا تغيرات كثيرة بسبب المقاطعة. وستقدم إسرائيل تبريرات وستنافق، لكن المقاطعة يمكن أن تجعل الإسرائيليين يتساءلون عن أسباب المقاطعة. والأمر الأهم هو كيف ستجري هذه المقاطعة، وألا تهدد الهوية اليهودية داخل إسرائيل بحدود العام ١٩٦٧، وألا تهدد شرعية إسرائيل داخل هذه الحدود. فهذه حدود الشرعية. وانظر كيف كان رد فعل الرئيس باراك أوباما على أقوال نتنياهو ضد المواطنين العرب في يوم الانتخابات الأخيرة. ورد فعل أوباما سببه أن نتنياهو مس بشرعية مشاركة مواطنين بالانتخابات».

«'السلام الآن' ماتت أمام عيناي»

سؤال: من هي الجهات التي تعمل معها الآن؟

إتكيس: أعمل «منذ العام ٢٠١٠ مع جهات عديدة، إسرائيلية وفلسطينية ودولية. وجزء من عملي هو في الناحية القانونية والجزء الآخر في مجال الأبحاث. وفي المجال البحثي، فإني أتناول موضوعا وأدرسه بشكل شامل، وهذا الأمر يستغرق فترة طويلة نسبيا. وهذه الأبحاث تدور حول الأراضي في الضفة. والتقرير الأخير الذي أعددته تناول موضوع المناطق العسكرية المغلقة في الضفة الغربية، ووجدت أن هناك مساحات هائلة داخل المنطقة C (التي تعادل مساحتها ٦٠٪ من مساحة الضفة) وأن أكثر من نصف أراضي هذه المنطقة يعلن عنها بصورة دائمة أنه منطقة عسكرية مغلقة».

سؤال: هذا يشمل أراضيَ بملكية فلسطينية خاصة؟

إتكيس: «هذا يشمل مساحة واسعة من الأراضي بملكية خاصة. وأصدرت مؤخرا دراسة، تمتد على ١٢٠ صفحة، حول أراض تم الإعلان عنها كمنطقة عسكرية مغلقة كوسيلة للسيطرة الإسرائيلية على الأرض، وستنشر قريبا باللغات العبرية والعربية والانجليزية. وقبل ذلك كتبت وثيقة حول الزراعة الإسرائيلية في الضفة، تمحور حول السيطرة على أراض لغرض الزراعة. وهذه دراسة مفصلة جدا حول كافة الأراضي التي يزرعها إسرائيليون في الضفة، وشملت أنواع الأراضي وأنواع المزروعات».

سؤال: ما هو دور حركة «السلام الآن» اليوم، هل هو متابعة البناء في المستوطنات فقط، بعد أن كانت هذه الحركة تنظم مظاهرات ضد

الاحتلال وممارساته وتخرج الآلاف للمشاركة فيها، في الماضي؟

إتكيس: ««السلام الآن» ماتت. ولقد ماتت أمام عينيّ، لأنها كانت جزءا من ظاهرة اجتماعية في المجتمع الإسرائيلي. إنها جزء من اليسار الذي يواجه أزمة عميقة جدا، لأسباب عديدة، سياسية وديمقراطية، وأيضا لأنه لم يكن قادرا على إجراء نقاش عميق وشامل، يضع الأمور التافهة والسخيفة جانبا. ولو سألتني قبل عشرين عاما لقلت أن الحل هو «دولتان للشعبين». وليس لدي اليوم معادلة يمكن أن تجعل الإسرائيليين والفلسطينيين يعيشون بشكل أفضل من حياتهم اليوم».

سؤال: عندما تنظر إلى خريطة المستوطنات، هل ترى أن ثمة إمكانية لقيام دولة فلسطينية؟

إتكيس: «لا. ولكن ينبغي أن نفهم أن أحد أسباب ذلك هو أن اليمين الإسرائيلي، وأنا لا أتحدث عن اليمين الرعاعي، وإنما عن اليمين العقائدي، ويوجد شيء كهذا، رغم أن حجمه صغير. وهذا اليمين العقائدي يفهم مصادر الصراع بشكل أفضل من اليسار الليبرالي. ونتنياهو هو أحد رموز اليمين العقائدي. وهو ليس شخصا غبيا. وفهم اليمين العقائدي لمصادر الصراع أعمق وأصح من فهم اليسار لمصادر الصراع. ومصادر الصراع ليست في العام ١٩٦٧ وإنما في العام ١٩٤٨. ماذا يحدث عندما تتغلغل مجموعة بشرية إلى حيز عيش مجموعة أخرى؟ يحدث صراع، توتر».

سؤال: نتنياهو يفهم هذا الأمر؟

إتكيس: «من الناحية السياسية هو يفهم هذا الأمر أفضل من «السلام الآن». لكن ما يحدث هو أن نتنياهو ليس مستعدا للقيام بأي شيء من أجل جعل الصراع أكثر اعتدالا. وعندما يتحدثون عن انسحاب إسرائيلي من الضفة الغربية وإخلاء مستوطنات إنما يتحدثون عن حل الصراع. لكن باعتقادي أن هذا ليس حلا للصراع وإنما جعله أكثر اعتدالا، إدارة الصراع. لماذا ضعفت «السلام الآن»؟ أعتقد أن الكثير من الإسرائيليين يدركون بشكل عميق أن الصراع أعمق من حدود ١٩٦٧، وهم ليسو مستعدين لأن يدفعوا أثمانا، ويقدموا تنازلات كما يسمون ذلك في إسرائيل، من أجل الوصول إلى نقطة جديدة في تاريخ الصراع. لماذا لا يريد الإسرائيليون فتح صفحة جديدة ويعتبرون أن الصراع سيستمر بهذا الشكل أو ذاك؟ لأن الصراع، حقا، يمس بعمق الوجود الجماعي الإسرائيلي اليهودي، وبإمكانك أن تسمي هذا استعمارا أو نظاما شبه أوروبي داخل الحيز العربي. وأعتقد أن أحد الأسباب الرئيسية لوجود اليسار الإسرائيلي الليبرالي في أزمة عميقة للغاية، هو أنه حاول أن يسوق لدى الجمهور الإسرائيلي فكرة أنه يجب القيام بهذا وذاك...».

سؤال: تقصد الانسحاب إلى حدود ١٩٦٧؟

إتكيس: «نعم. لكن هذا ليس الحل. وأقول هذه الأمور عن قناعة عميقة، لأني أعيش هذه القضايا. وهناك الكثير من الفلسطينيين الذين يرون الأمور بصورة مختلفة تماما. وأعتقد أنه لا يوجد اقتراح فلسطيني واحد لحل الصراع. وواضح تماما أننا بعيدون جدا عن النقطة التي سيتم فيها حل الصراع بين اليهود والعرب في البلاد. وأنا، كناشط سياسي وأحاول التأثير على الواقع، أتساءل حول كيف بالإمكان أن ندير الصراع، وأن يعيش الناس حياة معقولة أكثر. وواضح أن ما يحدث الآن ليس مقبولا أخلاقيا ولا سياسيا ولا اقتصاديا. وهذا لا يعني أبدا أنه في حال انسحبت إسرائيل إلى حدود العام ١٩٦٧، وتوصلنا إلى الحل المثالي، وتم الاتفاق على تبادل أراض وعلى القدس، ستكون العلاقات اليهودية العربية جيدة جدا. أعتقد أن الحياة ستكون معقولة أكثر، لكن ستكون هناك مجموعات ستمارس العنف في وضع كهذا. من هو غولدشطاين الذي نفذ مجزرة الحرم الإبراهيمي في العام ١٩٩٤؟ ومن هي حماس التي نفذت عمليات تفجيرية وانتحارية، إن لم يكونوا تلك المجموعات التي ترفض فكرة شرعية الآخر؟